فهم التليفزيون في ثقافتنا*

إذا كان التربويون سيمنحون شيئاً من اهتماماتهم لأثر التليفزيون في حياة أطفالنا، فإن عليهم أن يبدأوا فوراً بمحاولة فهم وضع التليفزيون في ثقافتنا وكيف ينظر إليه.

إن الكيفية التي ننظر بها إلى هذا الجهاز تمكننا من التعامل مع تحدياته بطريقة أكثر فعالية. وبوصفي واحداً من الذين ينظر إليهم على أنهم «مربو التليفزيون TV Educators» فإني حينما أقف أمام جماعات أولياء الأمور والمعلمين، وحينما أحاضر في «ورش العمل الخاصة بالمعلمين Teachers Work-shops»، وفي فصول الطلاب، حينما أفعل ذلك فإني أكون بين أول الناس المعترفين بأنهم لا يفكرون كثيراً في موضوع التليفزيون هذا إطلاقاً، وحينما نفكر فيه فإن تفكيرنا يكون في غالب الأحيان تفكيراً متحيزاً ومفتقراً إلى المعلومات.

* الثقافة الأمريكية طبعاً. . المترجِم.

إننا في هذا المجال نميل إلى إصدار الأحكام العامة، فعلى سبيل المثال نقول إنه «ليس هناك شيء طيب في قنوات التليفزيون هذه الأيام»، مع أنه يكاد يكون من المسلم به بأي معيار معقول أن صناعة التليفزيون المعاصرة تحاول جاهدة أن تمد المشاهدين الأمريكيين ببرامج ذات نوعية طيبة، ومن السوء بمكان أن نعتقد أنه «ليس هناك شيء طيب في قنوات التليفزيون»، وهو أمر مؤسف ولكنه شائع بيننا.

إن قبول الإنسان لهذه الفكرة، وقناعته بها، أي الفكرة العامة والسائدة بين الناس أنه ليس هناك شيء طيب في قنوات التليفزيون هذه الأيام ينقص فرص ذلك الإنسان في اكتشاف البرامج الطيبة وتقديرها، وكذلك ينقص من فرصته في الاستفادة من تلك ا لبرامج.

إننا ينبغي علينا أن نتذكر أن هذه الوسيلة -التليفزيون- التي عرضت علينا البرامج والمسلسلات الآتية: «The Gong Show»، «Three's Company»، «The Dukes of Hazzard»، «The Price is Right»، هي التي قدمت إلينا «Roots»، «Sixty Minutes»، «All in the Family»، «M.A.S.H»، «Hill Street Bluces»*.

* المجموعة الأولى من المسلسلات تتصف بالتفاهة وعدم وجود هدف لها =

كـمـا أننا ينبـغي ألا ننسى أن تلك الـوسـيلة ذاتهـا، أي التليفـزيون، والتي تعـوّد الـرؤسـاء أن يكـذبوا على الأمـة من خـلالهـا، هي التي تمكن كـل فرد في أمتنا من أن ينظر بتركـيز في عـيون هؤلاء الرؤسـاء، بل ربما يمكن أن يتـمعن داخليـاً في نفوسهم وأرواحهم.

إننا ينبغي أن نعترف بأن هذه الوسيلة التي تغرق حياتنا بالتفاهات والأمور الهزيلة هي ذاتها التي توحِّد بيننا خلال الأحداث التاريخية الدرامية التي نمر بها في هذه الأيام، كما حدث أن رأينا رجلاً منا يطأ بقدميه سطح القمر، وكما عشنا لحظات الحزن العميق ونحن نشاهد جنازة قائد لنا اغتيل في ريعان شبابه، وكذلك شاركنا -من خلال التليفزيون- أمة أخرى أفراحها وهي تحتفل بزواج ملكي لأميرها.

وإذا ما كانت المسؤولية هي مسؤولية المربين في إيجاد التوازن، وفي بعث رؤى صائبة عند مناقشة نوعية البرامج التليفزيونية، فلماذا نستبق الأمور ونقول: «إنه ليس هناك أي شيء جـيـد في تلك البـرامج.. ؟؟ إن هناك عـدداً من

= اللهم إلا الإثارة وتضييع الوقت، أما المجموعة الثانية فتتميز بأنها أعمال تليفزيونية مفيدة.. بل رائعة، بحيث تضيف لثقافة المشاهد فعلاً.. المترجِم.

الاعتبارات التي تستحق أن نوردها، باختصار، في هذا المجال:

أولاً- لقد نما معظمنا وهم يضعون القراءة في مكانة عليا، ويقدرونها حق قدرها. إن القراءة تكاد تكون مقدسة من الناحية الثقافية، وحينما نقول إننا قراء جيدون، أو حتى حينما نتظاهر بأننا قد قرأنا كثيراً، فإننا نشعر بسعادة غامرة تجاه ذواتنا، ولكن مشاهدة التليفزيون تجعلنا نشعر بشعور معاكس، شعور من الإنكار، ومن الذنب، بل إننا كثيراً ما نغير الحديث عند الكلام عن مشاهدة التليفزيون، وهناك عبارة شبه محفوظة في ذلك المجال، وهي: «أنا لا أشاهد التليفزيون كثيراً، في الواقع أنه ليس هناك شيء طيب يعرضه ذلك الجهاز».

ثانياً- لأننا نفترض أن التليفزيون لا يجتذب إلا جماهير العامة من الناس تكون توقعاتنا لما يقدمه ليست عالية، وربما يكون هذا هو السبب في أننا نادراً ما نعارضه، ونادراً ما ننزعج لما نشاهده على الشاشة الصغيرة من نوعية رديئة. وفي حقيقة الأمر لا يصدر عنا -غالباً- إلا التوسط في النقد، وربما حتى عدم الاهتمام، ولا نفترض فيه التميز رغم أنه ينتشر في منازلنا جميعها، بلا استثناء.

والخلاصة هي أن معظم مشاهدي التليفزيون «لا يرون» التميز الذي بإمكان التليفزيون أن يجلبه إلى بيوتنا، ومن هنا لا يمكنهم -بسبب حكمهم المسبق على التليفزيون- أن «يروا» النوعية الجيدة للأعمال التي تقدم من خلاله، كما لا يمكنهم تبعاً لذلك أن يحكموا عليها.

وأخيراً- بما أننا نعترف بأن هناك برامج ذات نوعية على شاشات التليفزيون فإن ذلك يتضمن الاعتراف بأن بعض ما يعرض هو من نوعية جيدة، وإن كان هذا القول يقابل بنظرات صمت طويلة عند قوله في حفلاتنا، بل يقابل بنظرات فضول من جانب التربويين، وأكثر من ذلك أنه يقابل ببرود في دوائر أصحاب الفكر والمثقفين، ولا بد أن أعترف بأن ذلك كله يثير فيّ شيئاً من الحزن.

إننا حين نعتقد أن «التليفزيون» هو «التليفزيون»، وأن كل ما يعرض على ذلك التليفزيون متشابه ومن نوعية واحدة فإننا نحرر أنفسنا من أن ننظر إلى ذلك الجهاز النظرة الناقدة التي تفرق بين الأمور وتوازن بينها، ولكن إذا اقتنعنا بأن هناك مساحة كبرى من البرامج المتنوعة والمختلفة تعرض على الشاشة الصغيرة فإننا -من هذا المنطلق- سنبدأ

في النظر إليها نظرة ناقدة موضوعية. إنَّ رفضنا أن نناقش موضوع التليفزيون من منطلق أنه لا يستحق حتى مجرد المناقشة يضيّع علينا خبرات كثيرة اكتسبناها من مشاهدته، وعلى الرغم من أن التعميم السالب المتعلق بالتليفزيون هو السائد، ينبغي على التربويين أن يواجهوا مسؤوليات أكبر فيما يتعلق بمواجهة التعميمات الكاسحة والسلبية التي تتعلق ببرامج التليفزيون، والتي نتجت عن «العمى الثقافي Cultural Blindness».

وحيث إننا ننظر إلى التليفزيون تلك النظرة المتدنية في حياتنا، فإنه يكون من الصعب علينا أن نتحقق من كيفية تأثير «تاريخ التليفزيون» في التليفزيون بوضعه الحالي اليوم، وكيف أن تلك التكنولوجيا التي بزغت وانطلقت سوف تؤثر في التليفزيون غداً. وكما كتب إيريك بارنو Erik Barnou باقتدار مناقشاً، في كتابه الممتاز عن تواريخ صناعة التليفزيون قال: إن التليفزيون له أصله وجذوره في الراديو، كما أن الراديو له أصله وجذوره في المسرحيات والتمثيليات الهزلية التي كانت سائدة قبله، ولذلك لا غرابة هناك في أن التليفزيون قد دخل ثقافتنا وتغلل في أعماقها وسيلةً من وسائل التسلية.

ولا ينبغي أن يفهم أحد من ذلك أن التليفزيون لا يقوم بشيء سوى أن يسلينا، **ولكن الحق هو أن ثقافتنا استخدمت التليفزيون أساساً للتسلية.** إن فهم تاريخ التليفزيون يساعدنا على أن نتحقق من أن التوقعات لأي وسيلة من وسائل الاتصال على أنها فقط «لمجرد التسلية» هي توقعات هابطة أو متدنية بلا شك، ومن هنا يمكن أن تكون الإمكانات المحتملة لنفس هذه الوسيلة مرتفعة ورائعة، ولكننا لم نتوصل إليها بعد.

ونحن المربين ينبغي علينا أن نشجع على التفكير في مجال مستقبل التليفزيون، إن نظام وضع برامج التليفزيون ونظم توصيل تلك البرامج إلى منازلنا تسير بخطوات سريعة، وتحدث فيها تغييرات لم تسبق من قبل.

إن الأقمار الصناعية، والمحولات السلكية، والإمكانيات الجديدة للتسجيل في المنازل، والاستخدامات الحديثة لشاشات التليفزيون، والإشارات التليفزيونية، والتطبيقات المتفاعلة للتليفزيون، والصوت المحسَّن، والصور الأكبر حجماً والأكثر وضوحاً، والتنوع الهائل في البرامج الذي لم يكن موجوداً من قبل، وربما كان الأهم من كل أولئك هو البحوث المتعلقة بنوعية أفضل من

المشاهدين . . إن كل هذه الأمور تمثل جانباً من التطورات الحديثة والحالية التي سوف تؤثر في التليفزيون خلال الحقبة الحالية . وإذا فشلنا في تربية المجتمع وإعداده بالطرق التي سوف يستخدم فيها التليفزيون مستقبلاً ، فإننا سوف نخضع أمة من المشاهدين لمعلومات ناقصة ، وقطعاً سيكون إعدادهم غير مكتمل .

وهناك طريقان آخران نفكر بهما في التليفزيون ، وهما يستحقان الإشارة إليهما باختصار . **الطريق الأول** هو أن معظمنا يعتقدون أن التليفزيون في الأصل وسيلة نستخدم عيوننا أمامها فقط ، ونتيجة لذلك فإننا نغفل حقيقة مهمة جداً مؤداها أننا نتلقى من خلال الاستماع إلى التليفزيون كمّاً من المعلومات أكثر مما نتلقى من خلال المشاهدة .

ولكي نختبر هذه الفرضية فعلى المتشكك فيها أن يشاهد التليفزيون خمس عشرة دقيقة من برنامج إخباري ، أو حتى من مشهد كوميدي وعليه أن يترك صوت الجهاز مرتفعاً ، ويطفئ الصورة على الجهاز بحيث تتحول إلى اللون الأسود ، ثم بعد ذلك يشاهد التليفزيون مرة أخرى دقائق عدة ، ولكن يجعل الصورة مرئية ، والصوت مختفياً ، ثم على المشاهد بعد

ذلك أن يقرر ويحدد بينه وبين نفسه أي الوسيلتين التي تلقى بها المعلومات أفضل، أو حتى الموقف الكوميدي الذي أذيع، هل «الجهاز المرئي».. أم «الجهاز المسموع»..؟

إننا -في الواقع- نفهم التليفزيون فهماً ناقصاً غير دقيق حينما نسمح لأنفسنا بالاعتقاد بأنه «مجرد وسيلة مرئية Merely Visual Medium» من وسائل الاتصال، إننا بفعلنا هذا كأننا نلغي «الرسائل الصوتية أو الكلامية Verbal Messages»، ونقفز بطبيعة الحال فوق الجهود الممتازة التي بذلت في كتابتها.

أما **الطريق الثاني** فهو أن معظمنا يعتقدون أننا لا حول لنا ولا قوة كي نؤثر في طبيعة البرامج التليفزيونية. إننا نسير في حياتنا وكأنه ليس هناك ما يمكن أن نفعله حيال التأثير في ذلك المارد العملاق الذي يدير التليفزيون ويوجه إلينا برامجه، ويسيطر -نتيجة لذلك- عليها.. وعلينا.

والواقع أني في دهشة دائمة ومستمرة من ملاحظتي لنظرات المشاهدين الذين يحضرون بعض محاضراتي عن التليفزيون حينما أقول لهم: «إني لم أر مطلقاً جهاز تليفزيون بدون مفتاح.. يديره.. ويغلقه»..!!

إن كثيراً من الآباء الذين يشتكون من كثرة مشاهدة أبنائهم للتليفزيون، ومن كيفية مشاهدتهم له، يرتكبون خطأً حين يتحققون أن ذلك التليفزيون من الممكن إغلاقه، بل ومن الممكن تركه مغلقاً فترة طويلة من الوقت. . !!

إن المشاهدين الذين يجدون التليفزيون عدوانياً* مفسداً، والذين يأسون لما يبثه ويستنكرون الإسراف الزائد فيه، ويحزنون لبعد معظم برامجه عن العقلانية والاتزان، هؤلاء المشاهدون يمتلكون القوة الجماعية The Collective Power القادرة على تغيير ذلك التليفزيون. وأقول مرة أخرى نحن التربويين مسؤولون عن بذل الجهود لمساعدة مجتمعنا في فهم القوى الكامنة في التليفزيون.

إن ذلك الأمر هو على نفس القدر من الأهمية مع أمر آخر، وهو بذل جهدنا مع المنتسبين للتليفزيون لنساعدهم في تنشيط قوى جماهيرهم ومشاهديهم من خلال تقديم الأعمال المتميزة. وأعظم وأقوى رسالة مؤثرة يمكن أن نرسلها لصناعة التليفزيون تتكون من عبارة واحدة هي: «لا. . إن ذلك غير مقبول». ونتبعها قائلين: «إني لن أشاهد ما تقدمون، وأبنائي كذلك لن يشاهدوه».

* فيما يخص تربية أبنائهم. . المترجِم.

إن هذه الرسالة سوف تستقبل ويستجاب لها فوراً، إذا قيلت بصوت مرتفع، وبشكل واضح، وإذا وجهت مباشرة للمسؤولين عن التليفزيون، ولن تكون هناك رسالة أخرى تعادلها في الأهمية، وقطعاً يمكن أن توصلنا إلى نتائج فورية قد تتمثل في إلغاءات لبعض البرامج في عز مواسمها.

إن الأهداف الاقتصادية المطلقة لصناعة التليفزيون لا ينظر إليها على أنها ذات أساس إصلاحي أو فضائل أخلاقية، وهذا أمر محزن، وكان الواجب على القائمين على أمرها أن يستجيبوا لحاجات المجتمع ومطالبه، ولكني من جانب آخر أقول إن صناعة التليفزيون قد ذهبت بعيداً جداً في محاولاتها إعطاء الجمهور ما يريد، والجمهور نفسه لم يوضح بقوة وبصراحة ووضوح ما المقبول لديه، وما المرفوض. وفي النهاية نصل إلى موضوع تربية جمهور التليفزيون وما الذي ينبغي علينا أن نقوله لأولياء الأمور في مجتمعنا فيما يتعلق بموضوع مفتاح التليفزيون الذي يديره.. ويغلقه..؟؟